عادت الأوهام لتبني لنفسها عشًّا في أذهان الساذجين بعد أن فاح مروق الملحدين وتجاهروا باستغلال البسطاء؛ ليجعلوا من تفشّي الأوبئة والأذى ذريعة للتشكيك في عدالة السماء أو إنكار وجود الله تعالى فسُلبوا التوفيق وابتعدوا عن سلطان الإيمان فوقعوا في مصيدة الشيطان صاغرين خائبين.

نعم اليوم أكثر من أي وقت آخر يتجاهر بعض الناس بإلحادهم ويشكّكون بوجود الواجب لذاته تحت ذريعة تفشّي الوباء، وعدم تدخّل السماء في إنقاذ الناس ورفع البلاء والوباء، ويوهمون الناس بأنّ وجود الله يستلزم الأمن والأمان والسلامة بوصفه مسلّطًا على كل شيء مع وجوده، ولمّا تعدّدت المصاعب والبلايا والكوارث وعمدت إلى تعكّر صفوة حياة الناس وسلبتهم لذة الحياة وزادتهم مخاوف واضطرابات، استغلّ الملحدون فساد الحال فزرعوا فكرة السؤال المحال في عقول الناس، أين الدور الإلهيّ؟ ولماذا هذه الشرور في حياة الناس؟ بل لماذا لم يجعل الله الدنيا دار سعادة وهناء؟

هذه الأسئلة وغيرها كثير تتوارد في عقول العامة ويستغلّها المنحرفون بأفكارهم المريضة. والذي ينبغي أن نعلمه جميعًا أن فلسفة الحياة والانتقال من دار إلى دار يقتضي وجود الفتنة والبلاء؛ ليتميّز الصالح من الطالح، مع الأخذ بالحسبان أنّ البلاء للظالم أدب وللمؤمن ابتلاء وللأولياء درجة. وقد سبق القول على لسان النبيِّ (صلّى الله عليه وآله وسلّم) إذ قال: ((ما أوذي نبيٌّ بمثل ما أوذيت))، مع العلم أنّه خير خلق الله تعالى من الأوّلين والآخرين.

أمّا الفلسفة الماديّة التي أخذت تنشط هذه الأيام فيعدّون وجود البلاء دليل النقص أو الجهل في الخالق؛ لأنّه بحسب فهمهم لو كان موجودًا للزم انتشار الخير والبركة والراحة دون العناء أو البلاء.

وهذا هو الجهل المركّب؛ وذلك لأنّ الخالق تعالى يخلق الأشياء خدمة لوجود الموجود ولا يخلق شيئًا لا فائدة منه؛ إلّا أنّ الناس قد يستبدلون الخير بغيره، فمثلًا فاكهة العنب والتمر أيضًا من الخير الكثير وقد يستبدلهما الناس إلى أن يجعلوا منهما الخمر فينقلب خيره شرًّا. كذلك معظم ما يدور في فلكنا فالله سبحانه وتعالى لا يخلق إلّا الخير وهذا يتناسب مع لطف الله تعالى وعدالته، وقد جعل الله سبل الوصول إلى الغايات ميسّرة وسالكة. فالطالب قد يسهر ليله ويبلغ مجهوده وتُتعبه القراءة والكتابة ولكن ينتظره النجاح والتفوّق، والتاجر يبذل المال ويجتهد في نقل البضاعة والسهر عليها ولكن الربح ينسيه همّ التعب والنصب. كذلك الإنسان يعيش في دنياه بين التعب والنصب والبلاء؛ ليكون الفوز والنجاة لمن يصبر عليها ويحظى برضى الله تعالى ويبتعد عن سخطه.

إنّ وجود الله تعالى لا يحتاج إلى دليل فنحن من علامات وجوده، وعدالته لا تحتاج إلى برهان ففي كل جانبٍ من جوانب حياة المخلوقات نجده سبحانه وتعالى قد خلق التوازن، فلم يكلّف المخلوقين أكثر مما يطيقون، ولم يحمّلهم زيادة على قدرتهم، وهو الخالق الذي يدرك قدرة مخلوقاته؛ لذلك وجده المؤمنون في كل شيء وغاب وحيه عن غيرهم من الذين لم يكونوا مؤهّلين لهذا التشريف وليكون حظهم الإنكار والإلحاد والنفور ويخسروا الاختبار كما خسر إبليس وفرعون، فطاش سهمهم فلم ينفعهم الرجوع ، {وَ غَدَوْا عَلى حَرْدٍ قادِرِينَ} [القلم:25] .